عرفتها في مراحل عمرها الأول، ثم نمت هذه العاطفة واكتسبت لونا جديدًا، خلال سنوات الصمت والقطيعة، ولم يكن حبي لها ينتظر إلا لقاء عابرا مثل ذلك اللقاء، ليتفجر كما يتفجر البرق عند تصادم السحب العامرة ببشائر الغيث والخصوبة.

داومت على الذهاب إلى السوق كل مساء، وذهبت ذات يوم في مغامرة للبحث عن اسمها في دفاتر المدرسة القديمة التي شهدت أول تعارف بيننا، علني أعثر على أثر يدلني على عنوانها، فوجدت أن المدرسة قد أزيلت، وحلت مكانها عمارات سكنية. عدت إلى الاحتماء بالسوق، الذي كنت أصل إليه أحيانا قبل أن تفتح الدكاكين أبوابها فأقضي ساعات الانتظار متجولا في الشوارع المحاذية. لم أعد أبحث عن أحد يعرفني أو أعرفه، وعندما يصادفني في الطريق وجه مألوف كنت أدير وجهي إلى الناحية الأخرى، لكي لا يراني، لأنني لا أملك وقتا ولا فكرا لصحبة الناس. ثم مالبثت هذه الزيارات المسائية للسوق، أن صارت صباحية أيضا، فقد خشيت أن تأتي في الصباح وتضيع فرصتي في الالتقاء بها.

أصبحت بعد مضي أيام قليلة، وجها معروفا لدى أصحاب الدكاكين، الذين اعتبروني جميعا محبًا لفنونهم وصناعاتهم اليدوية، واستخدمت أسلوبا ذكيا في البحث عن خديجة، فقد كنت أشتري بعض مقتنياتهم، وأسألهم أثناء الشراء، إن كانت هذه المروحة المصنوعة من سعف النخيل، أو هذه المحفظة الجديدة الحافلة بالنقوش أو هذا الصحن الفضي الملئ بالأسماك المرسومة، من شغل امرأة رأيتها تأتي إلى السوق وتقدم معروضاتها للدكاكين، فكانوا يسألونني عن اسمها، أو يطلبون مني وصفا لها، لأن نساء كثيرات يقمن بهذا العمل. فكنت أخبرهم، بأنني لا أعرفها وإنما أعرف فتاة بالغة الجمال تأتي بصحبتها اسمها خديجة. لم يستطع أحد منهم أن يدلني عليها ولكنهم عرفوا جميعا أن سبب مجيئي إلى السوق هو البحث عن صبية ذات ملاحة وبهاء اسمها خديجة.